الفصل السابع

حادثة فاشودة

وجهاد الفقيد سنة (١٨٩٨م)

استهل الفقيد عام (١٨٩٨م) وقد استرد صحته، وكله أمل ونشاط في الجهاد، وكان جهاده سنة (١٨٩٧م) قد آتى ثمره؛ إذ تحركت في النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورسائله في الدفاع عن القضية المصرية.

خطبته في حديقة الأزبكية (يناير سنة ١٨٩٨م)

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة (١٨٩٨م)، إذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها، واختاروا لها حديقة الأزبكية بالمطعم الذي كان مشهورًا باسم (سانتي)، وحددوا لها يوم (٨ يناير) عيد جلوس الخديوي عباس الثاني، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة، وقد أقيمت الحفلة، فكانت آية في الجلال والبهاء، وبعد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو أحمد أفندي حافظ عوض (بك) ودعا للخديوي ثم أثنى على الفقيد قائلًا: أشكر ضيفنا الكريم الذي رأيناه في شبابه الغض كثير الأعمال، كبير الآمال ونرى الليلة في وجوده بيننا شخص الوطنية الحقة، ومثال الإخلاص لمصرنا العزيز»[(١)].

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيد موقف الخطابة، فقوبل من جميع الحاضرين بعاصفة من التصفيق، فشكرهم على إحساساتهم، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية، افتتحها قائلًا:

---

(١) «المؤيد» عدد ٩ يناير سنة (١٨٩٨م).

«إخواني الأعزاء:

لقد شكرني حضرة زميلكم الفاضل على حضوري بينكم الليلة وإجابتي دعوة الذين تفضلوا بها إلى هذه الحفلة الشائقة، على أن الشكر يجب أن يقدم مني إليكم لأني أرى في حضوري بينكم شرفًا عظيمًا لي، وأقدر عنايتكم بدعوتي حق قدرها، ولطالما تمنيت أن أقضي بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجي أولئك الذين خرجت من صفوفهم، وما نسيت عهودهم وأتحدت معكم يا مستقبل مصر ورجاءها المنتظر في ذلك الواجب العظيم الذي يجب علينا جميعًا أن نقوم به حق القيام، وأعني به خدمة الوطن العزيز».

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الخديوي ونوَّه بتأييده ميول الشعب، عرج بالوطنية وأشاد بها قائلًا:

«إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة، وكل ما ترونه في أوربا من آثار العمران والمدنية، ما هو إلا ثمار الوطنية، أصبح اليوم الوطن المصري ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلًا وإنصافًا، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقًا وهبها إياها الخالق عزَّ وجلَّ. ولا ريب أنكم -معشر المتعلمين- معشر النابغين في المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية، وعرفتم سير ناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصًا لأوطانهم، فحيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه».

الوطنية والمال

إلى أن قال مستحثًّا كل متعلم مهما يكن صغيرًا على القيام بواجبه الوطني:

«إنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال، وشرع أحدكم في عمل من الأعمال سمع لا محالة من قوم غايتهم تثبيط الهمم وإقعاد العزائم: من أنت حتى تعمل هذا العمل؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يقدموا عليه، فكيف تقدم أنت عليه؟ وهو قول فاسد؛ لأنَّ الوطنية لا تمييز فيها بين الصغير والكبير، والغني والفقير؛ بل كلنا سواء أمام مصر، وكل واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب بخدمتها وإعلاء قدرها».

وبعد أن ضرب الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء، قال: «قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرًا في المال؛ ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سراة الوطنية». ودعا في خطبته إلى نشر العلوم والمعارف، فإنها الوسيلة إلى التمسك بالحقوق والكرامة.

الدعوة إلى الحياة الحرة

ودعا الشباب إلى الحياة الحرة والإعراض عن المناصب الحكومية؛ قال:

«لا شك أنه لا يمكنكم القيام بإنارة الأمة وإرشادها إلا إذا كنتم في الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم في سبيل الحياة، لا عمالًا في إدارة أو ديوان تنقدون في آخر الشهر مرتبًا معلومًا يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس في نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظائم الأعمال».

ثم نوَّه بالحياة الحرة في أوربا وما أنتجته من جلائل الأعمال، وختم خطبته بقوله:

«إنَّ أثمن نصيحة تلقيتها في صغري وألقيها اليوم على أبناء بلادي المحبوبة، وأختم بها كلامي معكم الليلة هي: العمل بالاتحاد على خدمة الوطن العزيز».

وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الإعجاب والحماسة والاستحسان، وكان لها الأثر الكبير في نفوس الشباب.

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقض مضاجع الاحتلال وصنائعه؛ لأن انتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغصب والعدوان، فكانوا يعملون على إحباط دعوته بالصحف الموالية لهم في مصر، وبالحملات الاحتلالية في الصحف الأوربية، وقد تردد في بعضها إتهامه بأنه يدعو إلى ثورة، فكتبت إحدى الصحف الفرنسية وهي جريدة (الوريان) مقالًا بهذا المعنى.

فرد عليها الفقيد بكتاب في (٣ فبراير سنة ١٨٩٨م)، بدأ بقوله:

«قرأت في أحد الأعداد الأخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين، كتبت بتحيز للاحتلال الإنجليزي وأشياعه، وليست عليها مسحة من الحق، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة، وأنكم تستظلون براية الحرية والإخاء والمساواة، رأيت أن أرسل إليكم كتابي هذا خدمة للحقيقة راجيًا نشره في المكان الذي نشرتم فيه مقالتكم التي نسبتم إليَّ فيها أمورًا أنا أبعد الناس عنها، وكذلك أبناء وطني جميعًا».

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيدًا مسهبًا في رده عليه، وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها: «إننا نحب المصريين كثيرًا ونميل إلى خلاصهم وعودتهم إلى التحلي بتاج الملك وجواهر العلم؛ ولكن لكي نصل إلى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة، وإننا لا ننكر أن أعمال «مصطفى كامل» كلها رزينة حكيمة لا تقل عن جمال أي عظيم ذكره التاريخ في سبيل تحرير بلاده، وإن له في بلاده عصبية تذكر بالإعجاب والإعظام، وأنه من أبناء فرنسا في العلم، ولكننا ننكر على غيره الشدة في القول والحماقة في الرأي».

ونشرت جريدة (لاكوريري) الإيطالية حديثًا للمترجم بعددها الصادر في (١٥ مارس سنة ١٨٩٨م) في شرح القضية المصرية والدفاع عنها.

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفي إبريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية)، وهو كتاب قيم يشرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الأوربية، وبخاصة إنجلترا حيالها، وأفاض في تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر، مستطردًا إلى ذكر استقلال اليونان، ثم مسألة سورية بين محمد علي وتركيا، وحرب القرم، ومؤتمر برلين، ثم شرح المسألة المصرية، ثم المسائل البلغارية واليونانية. ويرمي الكتاب إلى تحبيب الاستقلال إلى الأمة وإحياء الشعور الوطني في نفوس قرائه.

جهاده في أوربا (يونية-سبتمبر سنة ١٨٩٨م)

سافر مصطفى كامل من الإسكندرية يوم (الجمعة ٢٤ يونية سنة ١٨٩٨م) ليواصل جهاده في أوربا[١]، وما أن وصل إلى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد «سالسبري» رئيس الوزارة الانجليزية بسبب إخفاق سياسة وزارته بالصين، قال فيها تعريضًا بالهند ومصر: «إن إنجلترا لم تعمل السيف في الصين كما أعملته في الهند ومصر». فانبرى للورد سالسبري ورد عليه بالكتاب الآتي تعريبه -وقد نشره بالفرنسية في جريدة (الانترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية-:

«باريس في ٤ يولية سنة ١٨٩٨م

جناب اللورد سالسبري:

اطلعت في الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن إنجلترا قد فتحت مصر بالسيف، والوجدان الأبي يتجافى عن زعم كهذا، والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم، فإن بلادكم لم تفتح بلادنا،

(١) «المؤيد» عدد ٢٣ يونية سنة (١٨٩٨م).

وإني أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء، إن إنجلترا لم تكن في حرب مع مصر في عام ١٨٨٢م، بل هي تدخلت في حوادثها تدخلًا وديًّا لتأييد عرش الخديوي، فهل يليق بها وهي على ما تدعي أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها في مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف؟ وإلا كان معنى هذه الكلمات «شرف وتمدن وإنسانية» في عرفك يا جناب اللورد استعباد الأمم الواثقة بالتمدن؟ ألست القائل في عام ١٨٨٦م: «لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلو عن مصر»؟ ألست القائل في شهر نوفمبر من سنة ١٨٨٦م للمسيو وادنجتون: إن بني قومكم يكونون في ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث في مصر إلى ما شاء الله، فنحن لا نبحث إلا عن الوسائل التي نخرج بها من مصر بشرف وكرامة، أولستم أنتم الذين قلتم في البرلمان يوم (١٠ يونية سنة ١٨٨٧م) هذه العبارة: لا يسوغ لنا أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر، حتى على فرض أن عملًا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا؟ أولستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول في شهر أغسطس سنة ١٨٩٨م: إنَّ التصريح بإقامة إنجلترا في مصر دليل على قلة احترام العهود المقدسة التي ارتبطت بها حكومة جلالة الملكة والتي علينا الإذعان لها؟

فإذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة، فإنه ينبغي لكم أن تذكروا بأنكم قلتم في إحدى خطبكم الأخيرة: إن انحطاط الأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشرهها.

ولا يغيبن عن البال أن مصر التي كانت في جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية، فإنها لا محالة ستكون كذلك في المستقبل، ولا يمكن أن تنجو إنجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا؛ لأنكم إذا كنتم تعتبرون أن إرادة إنجلترا فوق إرادة أوربا، فإنه لا بدَّ أن يأتي يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على إنجلترا العظيمة القادرة، وربما هزرتم كتفيكم يا حضرة اللورد حين قراءة هذا

الكتاب، ولكن كل إنجليزي يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحي بعد قراءته».

مصطفى كامل

وكتب الفقيد عدة مقالات في الصحف الأوربية دفاعًا عن قضية مصر، ونشر حديثًا في جريدة (الإكلير) الباريسية عن يوم (١١ يولية) وهو ذكرى ضرب الإسكندرية.

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية في (سبتمبر سنة ١٨٩٨م)، وعاد إلى مصر فوصلها يوم (١٨ سبتمبر)، وله في المؤيد مقالات وطنية قيمة نشرها في سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة.

حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة الوطنية

وقعت في تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس وأثر بالغ في مصير المسألة المصرية؛ ونعني بها حادثة (فاشودة) التي اهتزت لها أوربا بأسرها وكادت تؤدي إلى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وإنجلترا.

كان السودان المصري في عهد الخديوي إسماعيل يصل جنوبًا إلى خط الاستواء، وشرقًا إلى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندي، وحدوده الغربية إلى (واداي) غربي دارفور (انظر الخريطة ص١٣١، وهي مقتبسة من كتابنا «عصر إسماعيل» جـ١ ص١٣٤، طبعة سابقة).

فلما شبت الثورة المهدية في السودان، ثم أكرهت إنجلترا الحكومة المصرية على إخلائه سنة (١٨٨٤م)، اعتبرته إنجلترا نهبًا مقسمًا بينها وبين الدول الاستعمارية فاحتلت أوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية، والجزء الجنوبي من مديرية خط

الاستواء المصرية، ومحافظتي زيلغ وبربره، وأخذت إيطاليا مصوع والإريترية ورأس جردفون (جردفوي)، وفرنسا تاجورة وجيبوتي والحبشة بلاد هرر وبني شنقول.

وفي غضون ذلك النهب الاستعماري اشتد التنافس بين إنجلترا وفرنسا على اقتسام مناطق النفوذ بينهما، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام في أعالي النيل كانت ترمي بهذه الحملة إلى صد التيار الإنجليزي في باطن إفريقية، ثم إلى فتح باب المسألة المصرية برمتها وإجبار إنجلترا على تنفيذ عهودها في الجلاء عن مصر، ومن هنا جاءت أهمية حملة مارشان على فاشودة.

ترددت فرنسا طويلًا في إنفاذ هذه الحملة، فقد فكرت فيها في أواخر سنة (١٨٩٣م) وعهدت بها أولًا إلى القومندان (مونتي)، ولكنها ما لبثت أن عدلت عنها، ثم تجددت الفكرة في أواخر سنة (١٨٩٥م). ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر السياسة الإنجليزية. فإنجلترا هي التي أوعزت إليها بإخلاء السودان ففعلت، ثم أوعزت لها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية، على حين لم تكن مصر في حاجة إلى تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر إخلاءه سنة (١٨٨٤م)، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الإنجليزية وضحية الوزارات التي تستسلم لها وتخضع لأوامرها.

عهدت فرنسا في سنة (١٨٩٦م) إلى الكابتن (مارشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها، وقد اختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية، فهي تعد مفتاح النيل الأعلى؛ إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبي السودان، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل، كنهر سوباط وبحر الغزال وبحر الزراف، ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وجهات خط الاستواء. (انظر موقعها على الخريطة ص١٣١).

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصدًا فاشودة، فقضى عامين في طريقه إليها يعاني المشاق والمتاعب المضنية في مجاهل

إفريقية، حتى بلغها واحتلها في يوم (١٠ يولية سنة ١٨٩٨م)، وكان احتلالها إيذانًا بفتح باب المسألة المصرية.

أدركت إنجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فبادرت إلى العمل لإجلائها، وهنا ظهرت (مؤقتًا) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها، فاعترضت باسمها على هذه الحملة، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية، وسار إليها اللورد «كتشنر» سردار الجيش المصري وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من (١٨٠٠) جندي مصري ومائة جندي بريطاني، فوصلها في (سبتمبر سنة ١٨٩٨م)، وهناك التقى بالكابتن مارشان، واحتج على احتلاله بلدًا مصريًّا ورفعه العلم الفرنسي «على أملاك سمو الخديوي»، وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد انتهاكًا لحقوق مصر، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصري على فاشودة، وكان مارشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التي جاءت لإجلائه عنها؛ إذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديًّا من أهالي السنغال فلم يقاوم، ورفع المصريون عليها العلم المصري.

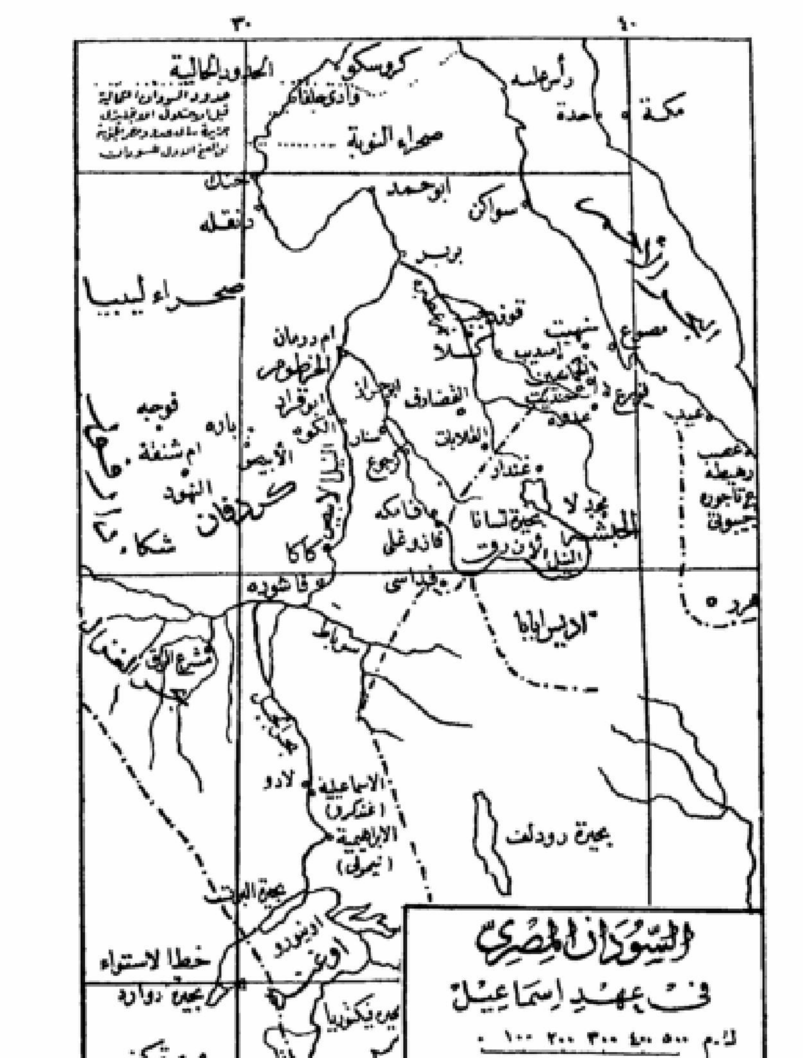

اشتدت الأزمة السياسية بين إنجلترا وفرنسا على إثر هذه الحادثة، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها، وتفتح باب المسألة المصرية، وتضطر إنجلترا إلى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة. وقد استيقن المصريون أن آمالهم في الجلاء ستتحقق؛ إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدي لإنجلترا إلا وهي مصرة على المضي في سياستها إلى النهاية، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى

امتشاق الحسام بينهما، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية، وقويت آمال المصريين في الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها، فسلمت بوجهة نظر إنجلترا، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة، وتمَّ جلاؤه عنها يوم (١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨م)، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية؛ لأنه دلت على أن فرنسا لا تنوي معارضة إنجلترا في احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء، ودل على نية الإنجليز في دوام احتلالهم لمصر والسودان، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين في الاستقلال.

ثبات مصطفى كامل في الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصارًا كبيرًا للسياسة الإنجليزية، وإيذانًا بإصرارها على البقاء في مصر والسودان، وتجاهل عهودها في الجلاء، فجنح معظم رجالات مصر إلى الولاء البريطاني واكتساب رضاه؛ إذ رأوا في حادثة فاشودة برهانًا جليًّا على رسوخ أقدامه في البلاد.

كتب مصطفى إلى أخيه علي بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابًا قال فيه:

«... إنَّ الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة، وأظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادًا أحسنت إليهم بما لا يحلم به غيرهم؛ ولكني ثابت على خطتي حتى الممات؛ لأن اعتقادي أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثاني فلسوف يجنيه مصري على مدى الأيام، وأننا إذا لم نقتطف ثمر علمنا وجهادنا في حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبني بعدنا».

وكتبت «مدام آدم» كثيرًا عن حادثة فاشودة، ومنها قولها في مقالة لها في (فبراير سنة ١٩٠٤م) عن أغلاط السياسة الفرنسية:

«فاشودة إنها الضربة القاضية! لقد قلت في رسائلي قبلًا إن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديوي والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعًا وبصفة حاسمة، وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هي الحاملة لراية استقلال مصر، فصاروا جميعًا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتي من السودان، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين».

وقد كان لها كذلك تأثير كبير في موقف الخديوي؛ إذ أخذ يذعن للأمر الواقع، ويتودد إلى الاحتلال، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة (١٩٠٠م)، وفي ذلك يقول مصطفى كامل في رسالته إلى مدام جولييت آدم في (٢ يونية سنة ١٩٠٠م): «أبعث إليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعوري والشعور الأهلي نحو سياحة الخديوي في لندن، تلك السياحة التي آلمتنا كثيرًا، وما ذلك والأسفاه إلا نتيجة فاشودة».

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزًا كبيرًا للاحتلال وصنائعه في مصر، وبعثت اليأس في نفوس الوطنيين، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الإنجليزية في تلك الحادثة، وخمدت جذوة الوطنية في النفوس؛ ولكنها لم تخمد في منفس مصطفى كامل؛ بل ضاعف جهاده وكفاحه بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب في طريقه، وأخذ يفكر من ذلك الحين في إنشاء صحيفة يومية تغذي النفوس والعقول بمبادئ الوطنية والكرامة والأمل والجهاد.

وقد كان يتألم إذ يرى كبار المصريين وذوي الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد، ويرى نفسه يكاد يكون وحيدًا في الميدان؛ لكنه مع ذلك ظل يثابر في جهاده بالرغم من العوامل المثبطة التي تكتنفه.

أرسل في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد «محمد بك فريد» كتابًا من باريس بتاريخ (١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨م) -نشرنا صورته بالزنكجراف ص١٣٤ - جاء فيه:

«وصلني خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجاري، وإنه لا يسعني إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال في مصر، فهو تعزيتي عن هموم بلادي، وتسليتي على قعود بني وطني عن إجابة ندائي والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.

وإنك لمصيب في رأيك بشأن دعوة رجال القلم في برلين، وإنه ليحزنني حقًّا أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن، ولا أجد غيرك في المصريين نصيرًا يساعدني على ذلك، فتجدني إن تكلمت أو دعوت أكلم كئيبًا أسيفًا، وأدعو وأنا عارف بأنه ليس في مصر من يساعدني على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى، فقل لي بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحي شيئًا لخدمة الوطن إذا قورن بيننا وبين الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم؟

أخي، سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدري من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن، وعدم وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها، وسأعمل كل ما في جهدي لخدمة البلاد، وما عليَّ إلا الامتثال لإرادة الخالق جلَّ شأنه الذي كأنه أراد أن أكون الوحيد في خطتي، الفرد المطالب بالاستقلال».

وأرسل إليه من برلين في (٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨م) كتابًا (صورته بالزنكجراف ص١٣٦) يقول فيه:

«وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء، وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا، فما ضاع حق لمطالب، وإني كلما زرت عواصم أوربا ازددت اعتقادًا بأن الأمر بيدنا، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها؟! وإني لأحس بكآبة.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨م).

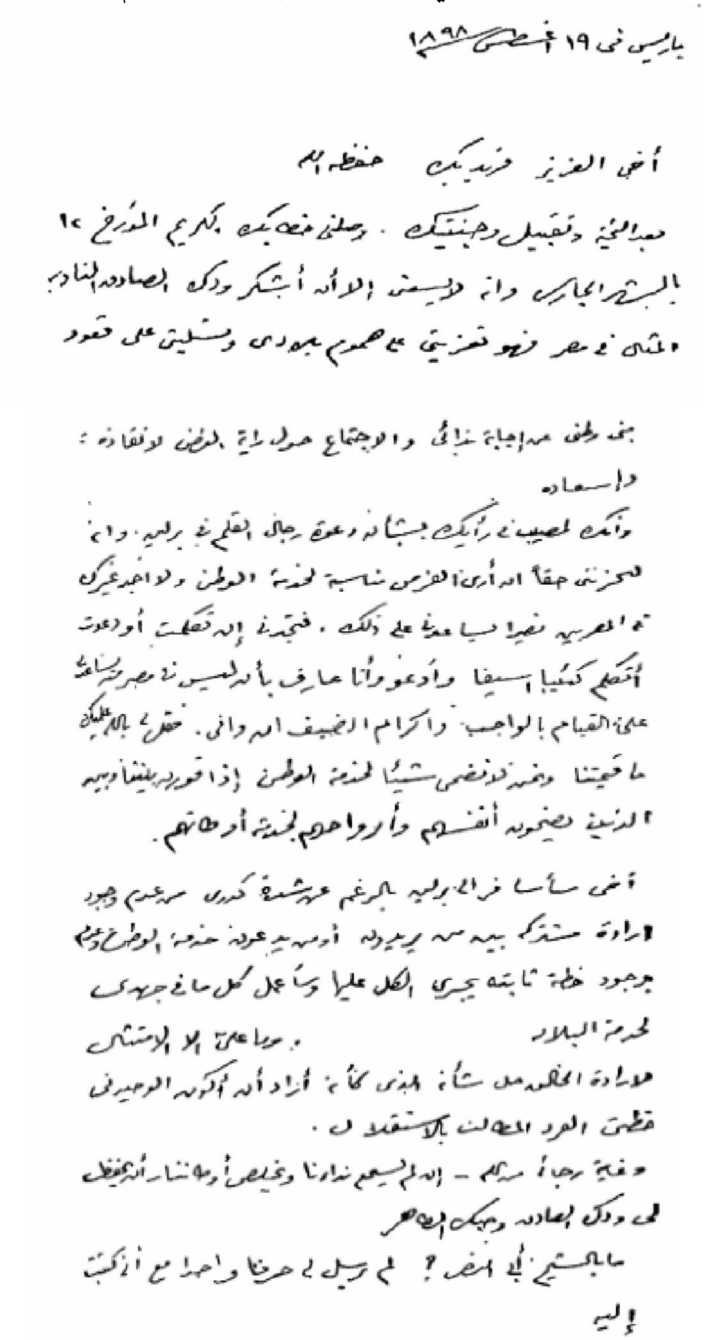

باريس في ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخي العزيز فريد بك حفظه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك . وصلني خطابك الكريم المؤرخ ١٢
بالشهر الجاري وإني لا يسعني إلا أن أشكر ودك الصادق النادر
المثال في مصر فهو تعزيتي عن همومي ببعادي وتسليتي على قعود
بعض الطف عن إجابة ندائي والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه
وإسعاده

وإنك لمصيب في رأيك بشأن دعوة رجال القلم في برلين . وإني
لتحزنني حقاً أن أرى الفرص سانحة لخدمة الوطن ولا أجد غيرك
من المصريين نصيراً ساعياً على ذلك . فيحزنني أني تكلمت أو دعوت
أتكلم كثيراً أسفاً وأدعو وأنا عارف بأن المصريين في مصر [illegible]
على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى . فحرام بالله عليكم
ما فعلتنا ونحن لا نقضي شيئاً لخدمة الوطن إذا قورنا بغيرنا ومنهم
الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم .

أخي ما أسأت في أمر برلين بالرغم من رغبة كثيرين من عدم وجود
إرادة مشتركة بينهم من يريدون أو منهم من عرفوا خدمة الوطن وعدم
وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها ويعمل كل ما في جهده
لخدمة البلاد . وما علينا إلا الاستمرار
فلإرادة الحكومة من شأنه الذي كان أراد أن أكون الوحيد في
خطبة الوفد المطالب بالاستقلال .

وفقك الله أخي العزيز - إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا أن يحفظ
لي ودك الصادق ويحيك لمصر

ما الجسم إلا المنضو ؟ لم يرسل لي حرفاً واحداً مع أن كتبت
إليه

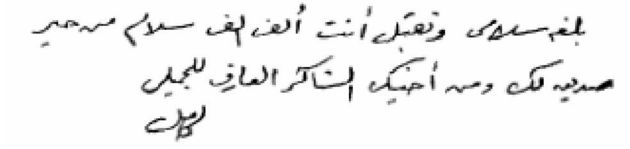
بلغ سلامي وتقبل أنت ألف ألف سلام من محب
صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل
كامل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

برلين في ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨

أخي العزيز فريد بك

بعد التحية والتسليم والسؤال عن صحتكم كما تعلم عظيم وصلني خطابك الأخير بباريس وأنا على جناح السفر إلى برلين ففضلت تأجيل الرد إلى وصولي هذه العاصمة العظمى ....

وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يديره كيف يشاء وما علينا إلا العمل والثبات على الخطة التي جعلناها دستورنا. فما ضاع حق وراءه طالب

وإني كلما زرت عاصمة من أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا وأنه لا [illegible] [illegible] الامتيازات الأجنبية [illegible] [illegible] لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها. وإني لأحس بالحاجة وحزن عظيم لوجودك في هذه البلاد وحدك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فعسى الله أن يجعل من يساعدك وأجد منه في الوطن أنصاراً يجاهدون معنا بأفكارهم وآمالهم [illegible] [illegible] [illegible]

سأبرح برلين [illegible] [illegible] [illegible] وأبارح [illegible] يوم السبت القادم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يوم ٦ سبتمبر وأظن أني آتيه [illegible] [illegible] ٥ سبتمبر

[illegible] [illegible] [illegible] (بوليس [illegible]) الذي تعرفت به يقول لي فيه أنه مسافر قريباً إلى مصر ففرحت بهذا الخبر لأن هذا الرجل محب لنا [illegible] أن [illegible] صفحات جديدة بأحوال مصر وحقيقة الأحوال [illegible] فيها

أقبلك ألفاً وأهدي إخواننا الأفاضل ألف سلام [illegible]

[illegible] [illegible] مصطفى كامل

وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد وحدي وتعود القوم هنا على مقابلتي دون غيري، فعسى الله أن يمدني بمساعدته، وأجد من بني الوطن أنصارًا يجاهرون معي علنًا بأفكارهم وآمالهم، وما ذلك على الله بعزيز».

خطبته بالقاهرة (٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨م)

كان ختام جهاده عام (١٨٩٨م) أن ألقى يوم (٢٣ ديسمبر) خطبة وطنية بالتياترو الطلياني بالأزبكية، موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز)، وكان الإقبال على سماعها عظيمًا، والزحام شديدًا، وظل يخطب نحو ساعة ونصف، وجاءت الخطبة بعد حادثة فاشودة، فحمل على اليأس حملة صادقة، واستثار في النفوس روح الأمل والواجب. وفي هذه الخطبة قال كلمته المأثورة: «لا معنى لحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة».

ويتبين لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من روح النفعية والتردد والهزيمة التي كانت فاشية في المجتمع، وفي ذلك يقول:

«يجب علينا أن نجتمع كثيرًا، ونتدبر في الأمر طويلًا، فقد توالت الحوادث الجسام، وتعاقبت البلايا العظام، وأنذرت الأيام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل إذا دام المصريون رائدهم الشقاق والفراق، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أي حال تعيسة كانت أو سعيدة».

إلى أن قال:

«تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم، واسألوا سرائركم: هل أنتم في شقاء أم هناء؟ وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهي جنة الأرض وأبدع البلدان؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم، أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون؟!.

تمر الحادثات المزعجات علينا، وتنفطر لها قلوبنا، وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا، ثم لا نجد لسانًا ينطق بما يختلج به الجنان؛ بل نرى سكوتًا في سكوت واستسلامًا في استسلام، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء».

ثم تكلم عن استسلام الوزراء والحكام والكبراء للاحتلال، وسكوتهم عن رفع العلم البريطاني في السودان بعد استرداده، قال:

«لقد بالغنا في الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار، فهذه بلاد السودان قد فتحتها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الأعزاء، أي راية تخفق اليوم عليها؟ وأي شرع يقام اليوم فيها؟ وأي حق يُعترف به للمصريين في نواحيها؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد، وتبذل حياتها رخيصة في سبيل استرداد السودان، ثم تسلم إلى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة، وهي من مصر الروح والفؤاد؟ فأي فضيحة بعد هذه الفضيحة، وأي عار بعد هذا العار؟ أقام الإنجليز الأرض وأقعدوها بسبب غردون وثأر غردون، ونسفوا قبر المهدي نسفًا، وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال، وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحيةً وسلامًا على روح هذا الفقيد، ورفعوا رايات الفرح والنصر للأخذ بثأره، والمصريون ينظرون إلى هذه المناظر ويتساءلون: أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيمة؟ أليس المصري في شريعة الله إنسانًا ككل إنسان؟ أتموت منا الجنود والأبطال قبل استرداد السودان في سبيل استرداده ولا يذكرون بشيء بل يقوم منا من يهنئ الإنجليز بأخذ ثأر غردون؟ أيكون دم فرد من الإنجليز غالي الثمن رفيع القدر، ودماء الآلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان؟ لقد تعاظم الخطب وأصبحت الحياة مرة، وبات الوطن في أشد الأخطار، وكل منا يهمل واجباته وينتحل لنفسه عذرًا، فمنا من يطمع في الثروة والترقي، ومنا من يخاف الذل والفقر، ومنا من لا يشعر بالمسئولية، ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط».

إلى أن قال:

«إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظنَّ كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لا له، فيقول: (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميتة)، فمن هي الأمة؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها؟! أوليست الأمة الفرد متكررًا؟! فإذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع، ورُدت على الأمة حريتها وسعادتها، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة».

ثم دعا في خطبته إلى قيام كل مصري بواجباته الوطنية، وإلى نشر التعليم القومي وتربية النشئ تربية دينية. وفي الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه، ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام في بعث الحركة الوطنية في جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وإيثار المصالح الشخصية على المصلحة القومية.